شعريـــــة النـــــص
بين جدلية المبدع والمتلقي

السعيد بوسقطة
ق. اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة

Résumé

Cette étude essaye de découvrir la poétique du texte , entre l'auteur et le lecteur , à travers deux structures binaires : le texte / l'auteur et le texte / le lecteur , en répondant à un certain nombre de questions .

La première difficulté qu'on rencontre est la délimitation du texte lui-même , sa définition, et ses dimensions; vu qu'il est un espace multidimensionnel , et une charge émotionnelle régie par des règles linguistiques , des valeurs morales , civilisationnelles et sociales .

Chaque théorie critique propose sa vision propre de cette dialectique (texte ≠ lecteur) . Mais la seule certitude que nous avons dans ce domaine , c'est que le lecteur arrive à dominer le texte afin de déchiffrer ses codes et de découvrir sa richesse et ses valeurs , et de déterminer la véritable relation dialectique entre les deux pôles du texte (l'auteur et le lecteur) .

الملخـــــص

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن شعرية النص في جدليته بين المبدع والمتلقي عبر منظومتين ثنائيتين : النص / المبدع ، والنص / المتلقي ، بالإجابة عن عدة تساؤلات .

وتـــأتي صعوبة القبض على النص وتحديد ماهيته وأبعاده لتعدد الرؤى، ولكونه فضاء لأبعاد متعددة متنازعة ، إضافة إلى كونه شحنة انفعالية تحكمها قواعـــد لغويـــة ومعايير أخلاقية وقيم حضارية وخصائص اجتماعية . لقد ظل النص بين جدلية المبدع والمتلقي، فللنص سلطته وللقارئ سلطته .

وقد أضفى البنيويون على النص سلطة مطلقة، بحيث ينطلقون من بناه وأنســـاقه الداخلـــية دون غيرهـــا من السياقات الأخرى بينما تنطلق المناهج

الأخرى التي جاءت بعد البنيوية (التفكيكية مثلا) من سلطة القارئ المطلقة في البحث عن القراءات المتعددة للنص .

ويـبقى المهم هو السيطرة على النص واستثماره بفك إشاراته ورموزه المتعددة، وإبراز حقيقة العلاقة الجدلية بين منشئه (المبدع) ومتلقيه (القارئ).

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن شعرية النص في جدليته بين المبدع والقارئ ، عبر منظومتين ثنائيتين (النص / المبدع، النص / المتلقي) بالإجابة عن عدة تساؤلات :

- حدود النص ودلالته، هل تنبع من منشئه أم من علاقته بالمتلقي ؟
- النص وجماليات القراءة ، سلطة المبدع أم سلطة القارئ ؟ أم علاقة تبادلية ؟

أولا – حـــدود النـــص وأبعـــاده (المصطلـــح والمفهـــوم)

يقف القارئ أمام ركام هائل من التعريفات الخاصة بالنص ، تنطلق من نظرة خاصة ومرجعيات مختلفة .

إن الاختلاف حول ماهية النص يكمن أساسا في اختلاف التصور لذلك الكائن ، والغاية من دراسته. فحدود النص ونظريته ومفهوميته تتجسد وتتبلور وفـــق تلك المنطلقات ، سواء أكانت إيديولوجية ، أم نفسية، أم خلقية فالنص سيتموقع في الواقع الذي ينتجه عبر لغة مزدوجة تتم في مادة اللسان وفي التاريخ الاجتماعي. فعبر تحويل مادة اللسان (في تنظيمه المنطقي والنحوي)، وعبر نقل علامـــات القـــوى من الساحة التاريخية (في مدلولاتها المنظمة من موقع ذلك الملفـــوظ المـــبلغ) إلى مجال اللسان ينقرئ [1] النص ، ويرتبط بالواقع بشكل مـــزدوج ، فمـــا دام النص الأدبي عائما كما يؤكد – الغذامي – » فمبدعه يطلقـــه في فضاء ويأخذ في تقرير حقيقته« [2]. وما دام النص إحالة إلى إطار مـــرجعي، فإن تلك المرجعية ستحدد طبيعة التعامل معه (النص) بوصفه كلا

مكونا من عناصر مختلفة متكاملة فيما بينها على أساس مستويات متعددة ، أو النظر إليه من منظور علوم مختلفة تاريخية، ونفسية ، وانثروبولوجية، وغيرها ..

لقـــد تعددت قراءة النص ، وتنوعت مفاهيمه، وتلونت بتلون النظريات الأدبـــية والمـــدارس الـــنقدية، فالنص في نظر السيميائيين نظام سيميائي مادته الجوهـــرية في التبلـــيغ اللغة، كما عد في نظر اللسانيين فضاء[3] يخترقه مفهوم الكـــتابة والـــنقد والأسلوب، وهو علاقة لسانية مكوناته الجوهرية هي الدال والمدلول le signifiant et le signifié ، أما الأسلوبيون فيرون أن النص وحدة قائمة مستقلة عن إدراك القارئ لها؛ فشلوفسكي يفترض أن أي محتوى.(عمل أدبي) ليس شيئا آخر غير» مجموع الوسائل الأسلوبية «[4] .

إن الحديث عن النص وماهيته ونظريته يضعنا أمام المنهج الجديد الذي وضعت أسسه جوليا كريستيفا Julia Kristeva في كتابيها :

1 – بحوث في سبيل التحليل العلاماتي Recherche pour un sémanalyse

2 – نظرية الرواية La théorie du roman

كمـــا ساهم رولان بارت [5] Roland Barthes في تلك النظرية من خلال الفقـــرات التـــاليـــة :

- أزمة العلامات La crise du signe
- نظرية النص La théorie du texte
- النص والأثر الأدبي Le texte et l'oeuvre
- الممارسة النصية La pratique textuelle

لقد استخدم مصطلحات ومفاهيم قامت عليها النظرية السوسيريـــة (الدال والمدلول ، والعلامة ، والدلالة ، والمرجع ...) كما أكملت كريستيفا الشكل النهائي لتلك النظرية بإضافتها أنظمة سيميائية أخرى، هي :

– ممارسات دلالية Pratiques signifiantes

- الإنتاجية Productivité
- التمعني La signifiance
- خلقة النص Phéno-texte
- التناص Intertexte
- تخلق النص Géno-texte

وقد قدم بارت نظريته على المربع الدلالي التالي [6] :

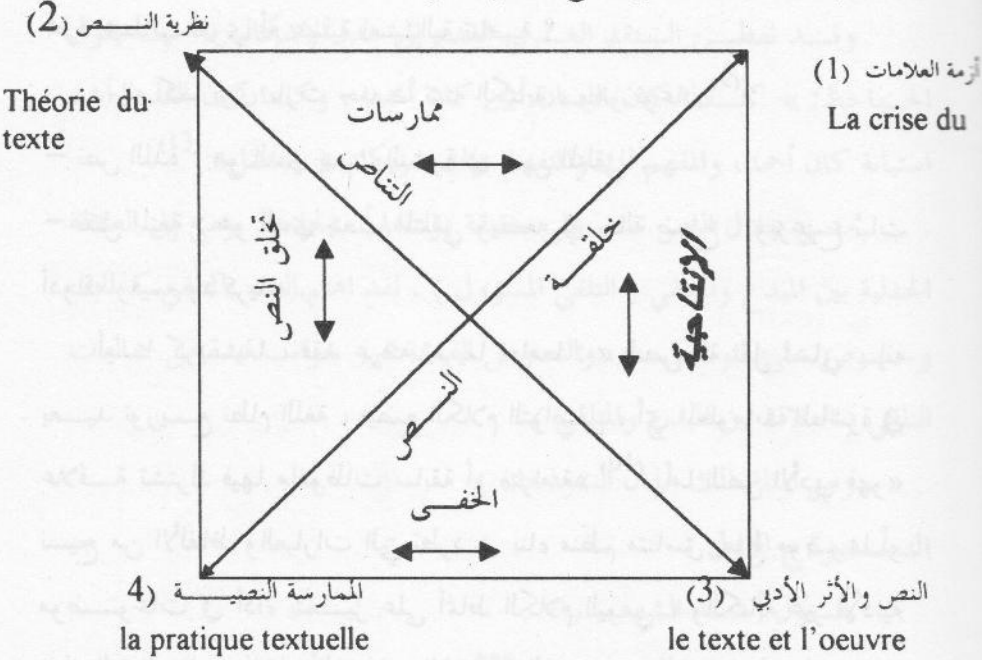

يتضح من خلال الجدول أن التعامل مع النص قد اعتمد على إجراءات تعـــبر عن رفض العلوم المعيارية كالبلاغة وفقد اللغة وتاريخ الأدب ... ذلك؛ لأن مفهـــوم النص لا يقتصر على الأشكال المكتوبة ، بل يتجاوزها إلى الفنون التعبيرية كالرسم والموسيقى [7].

إن بارت - من خلال جهوده السابقة - قدم إلى النقد ممارسة تجاوز بها حدود اللسانيات إلى علم أكبر رحابة، هو " علم النص "، الذي تتمثل مهمته

في وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية [8] النصية بمستوياتها المختلفة ، وشـــرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة .

فما دام النص قد أصبح يشكل محورا رئيسيا في الدراسات النقدية ، فإننا سنحاول الوقوف أمامه منطلقين من المدرسة الجديدة (كريستيفا وبارت) في تحديد هويته . لقد تعددت الآراء في تحديد ماهيته ، وكثرت التساؤلات ، أهو مجرد خطاب لغوي أم عملية استبدالية تناصية ؟

إنه كما يرى بارت حديث تتبته الكتابة ، وهو نوعان [9] :

– نص اللذة : هو الذي يبعث النشوة في نفس المتلقي .

– نص المتعة : هو الذي يتعب المتلقي ويضعه في حالة ضياع ، ويزعزع ثبات أذواقه وقيمه وذكرياته ...

أمـــا كريستيفا ، فقد عرفته تعريفا جامعا : » النص آلة نقل لساني ، إنه يعـــيد توزيـــع نظام اللغة ، فيضع الكلام التواصلي ، أي المعلومات المباشرة في علاقـــة تشترك فيها ملفوظات سابقة أو متزامنة« [10]. أما النص الأدبي فهو» نسيج من الألفاظ والعبارات التي تطرد في بناء منظم متناسق يعالج موضوعا أو موضـــوعات في أداء يتمـــيز على أنماط الكلام اليومي ، والكتابة غير الأدبية بالجمالية التي تعتمد على التخييل والإيقاع والتصوير ، والإيحاء والرمز ، ويحتل فـــيها الـــدال بتعـــبير سوسير مرتبة أعلى من المدلول مقـــارنة بالنـــص الغير الأدبي« [11].

إن الـــنص الأدبي رســـالة ترمـــيزية يبـــثها مرسل إلى مستقبل، تتحدد استجابتها بتعا لعلمية الاستيعاب، وهو كذلك نص معرفي تتلاقى فيه جملة من المعـــارف الإنسانية، يعيش في حضور صاحبه وفي غيابه ، لكونه كائنا عضويا

تفاعلـت في صـنعه عوامل عدة قبل إبداعه، ويكتسب قيمته الفنية من خلال قدرته على الإيحاء والتأويل والانزياح .

ثانيـــا – النـــص : المبـــدع / المتلقـــي

الـنص الأدبي ليس طريقة إبداع فقط، إنما هو طريقة إبداع وتلقٍّ معا؛ ذلـك أن الأدب عموما، كما يرى الغذامي » عملية إبداع جمالي من منشئه، وهو عملية تذوق من المتلقي« [12].

وقـد تفطـن الـنقد العـربي القديم إلى هذه الإشكالية ، حيث يقول الجـاحظ: » كـلما كان اللسان أبين كان أحمد ، وكلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل« [13].

مـن خلال النص نقف على حقيقة مؤداها أن الجاحظ يومئ إلى العلاقة الجدلية بين المبدع والمتلقي (التلقي المسؤول) . لقد اهتم النقد بالمتلقي كذلك، وحـرص على التواصل معه، والنصوص القديمة تبرز جوانب عدة من جماليات التلقي (العلاقة بين المبدع والمتلقي) .

ومن أمثلة ذلك هذان النموذجان :

النمـــوذج الأول

يقـول أحـد الشعـراء

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه *** فليس خليقا بأن يقال له شعر

النمـــوذج الثانـي

رد أبي تمـام عـلى السـائل حين سأله قائلا : لم تقول ما لا يفهم ؟ فأجاب : و لم لا تفهم ما يقـال ؟

إضافة إلى العديد من النماذج الشعرية القديمة التي تعرضت إلى أحكام نقدية متباينة من استحسان واستهجان .

إن عمليـــة الـــتلقي تكون – في الغالب – غامضة ، فقد عدها أناتول فرانس حوارا متكافئا بين الكاتب والقارئ . أما فيكتور هوجو فقد عد الحوار مبارزة يصعب التنبؤ بنهايتها.

هذه الإشكالية لم تغب بدروها عن نقدنا القديم، إذ أشار إلى أن معاناة الـــتلقي توازي معاناة الإبداع، يقول أبو إسحاق الصابي : » أفخر الشعر ما غمض ، فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه «[14].

عـــلى الرغم من أن هذه الرؤية سابقة جدا زمنيا، فإنها لا تبعد كثيرا من علاقـــة المبدع بالنص وبالمتلقي في النقد الجديد، فنلاحظ مثلا رؤية جاكبسون لهذه العلاقة من خلال الجدول الآتي :

مخطط جاكبسون [15]

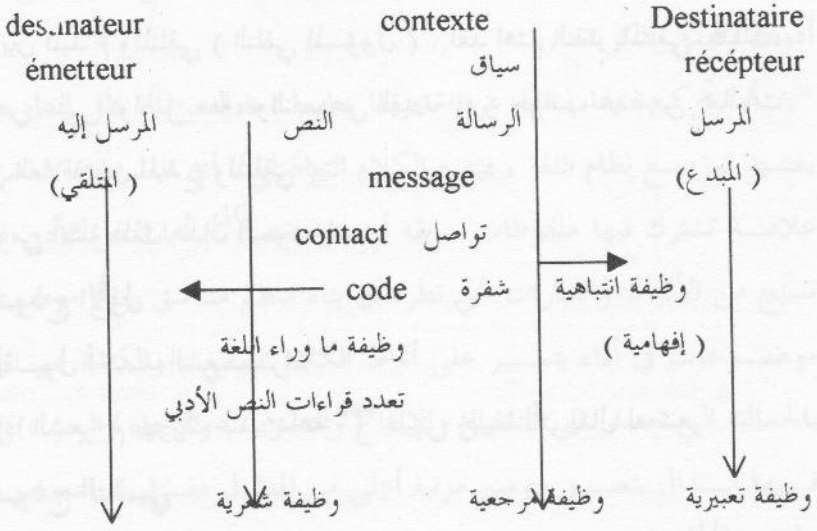

كل عنصر من العناصر تقابله وظيفة

إن القراءة القديمة كانت استقبالية - في الغالب - تكرس ثنائية المبدع والتلقي مكتفية باستيعاب المعنى الأحادي [16]، لا تتجاوز الإطـــار المرجعي (مشترك بين الطرفين) الذي يعمل على إضاءة النص .

«يبدأ النص مغامرته الأساسية مع آفاق التلقي المختلفة لاختلاف الرؤى والأذواق ، وتـتحقق فعالـية هذا التلقي من خلال العلاقة الجدلية بين النص ومبدعه، إذ » لا توجد حقيقة العمل الأدبي إلا حين يتواصل القارئ مع النص ، ولا يتحقق مفهوم النص إلا من خلال القارئ الذي يعيد تشكيله من جديد، وهو على وعي بأنه واقع خيالي جمالي [17].

كمـا نجـد هـذه الفكرة (الترابط) عند الناقد جان لويس بودري J.Louis Baudry، حيـث يقـول : « إن أية قراءة ترتبط بكل كتابة، كما ترتـبط أية كتابة بكل قراءة » [18]. وهكذا يتضح أن النص لا حياة له إلا من خـلال المـتلقي، وأن التأويلات المختلفة تغنيه وتمنحه حياة مستمرة، وعملية الـتلقي هي بمثابة ولادة حقيقية له (النص) ، ذلك ما يشير إليه عبد السلام المسدي في قوله : «حتمي أن نقر أن الملفوظ يظل موجودا بالقوة سواء أفرزته الـذات المنشـئة له أم دفنته في مواطن اللاملفوظ ، ويخرجه إلى حيز الفعل إلا متلقيه، وهذا المتلقي بمثابة انقداح شرارة الوجود للنص ولماهية الأسلوب الذي لا يـبقى مـن تعـريف له إلا كونه كائنا منشودا منذ لحظة النشأة إلى حيث يستهلك، فقراءاته دفن لصيرورته من حيث إنها تبشر بولادته » [19].

«والتعامل مع القارئ ليس باعتباره عنصرا خارج اللغة (لغة الكتابة)، وإنمـا هـو مكون أساسي داخل النص ، وبذلك تصير القراءة إعادة لكتابـة النص ، تقوم على ممارسات ثقافية لها تأثير في الحقل الاجتماعي، وبذلك تصبح العلاقـة علاقة تبادلية من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص ؛ ذلك أن

اســـتلهام الإبداع كما يرى طه حسين هو» جهد مشترك يجب أن يحمل عبئه المنتج والمستهلك معا » [20].

فشـــعرية التلقي إذن ليست تلقيا سلبيا، بل هي إسهام في إنتاج النص وكشـــف قيمه المختلفة . من هنا، فإن النصوص لم تعد نصوصا مغلقة، مجرد نصوص تصريحية تفرض سلطتها على المتلقي ، بل أصبحت نصوصا مفتوحة ، لا تفصـــح عن مخزونها إلا في عمق السياق . فالنص المفتوح يتم إنتاجه بواسطة القارئ في فعل تعاون، لا فعل استهلاك ، وعلى أثر ذلك يصبح المتلقي شريكا للمـــبدع في تشكيل النص؛ لأن القراءة هي تفاعل بين النص والوعي الفردي المجسد لقيم العصر .

مـــن هذا المنطلق، يتضح أن للمتلقي دورا كبيرا في العملية الإبداعية ، يؤكـــد هـــذه الحقيقة تولستوي Tolstoi – من خلال تجربته – قائلا : « أنا أعـــرف مـــن تجربتي في الكتابة أن توتر النص الذي :تبه ونوعيته يتوقفان على تصوري القبلي للقارئ الذي أكتب له ... » [21].

مـــن هنا ، فإن الوقوف أمام شخصية المتلقي ودراستها مهم في العمل الأدبي، لا تقـــل أهمية عن دراسة النص في مجال الظاهرة الأدبية، ولذا يجب أن تصبح دراسة المتلقي الفني عنصرا[22] مكونا في عملية الكشف عن قوانين الفن ووظائفه ودوره في الماضي والحاضر .

لقـــد تـــبلور الاهـــتمام بهذه القضية (التلقي) عبر الطروحات النقدية المختلفة ، خاصة بعد ترجمة الكثير من أعمال الألسنيين والأسلوبيين والبنيويين ، كما كان لدراسات بارت، وغولدمان ، وتودوروف، وكريستيفا الأثر الأكبر في الـــتوجه إلى الاهـــتمام بالمتلقي ودوره في الظاهرة الأدبية، التي نشأت بعد البنـــيوية، والداعـــية إلى تكـــريس ســـلطة القـــارئ كنظرية القراءة والتلقي والسيميولوجيا .

وإذا كـــان الطـــرح البنيوي غايته النص وما حوله، وإذا كان الاهتمام بـــالمؤلف هـــو سمة النقد حتى أواخر القرن التاسع عشر، والاهتمام بالنص سمة النقد الجديد، فإن المرحلة الثالثة في تطور النظرية الأدبية تتمثل في تحول الانتباه بصـــورة واضـــحة إلى القارئ وما يقوم به الناقد قارئا [23] للنص، من تفاعل ونشاط لكشف آثار النص عليه .

من هذا المنطلق، فإن الممارسات النقدية الجديدة غيرت النظرة والتصور إلى العلاقة بين المبدع والمتلقي، وأعادت الاعتبار للمتلقي الذي تحول إلى مبدع ثان .

إن التعامل مع النص، وتحديد هويته، والعلاقة الكامنة بين منشئه ومتلقيه تـــأتي استجابة لمنطلقات وتوجهات متباينة مستندة إلى رؤى وقناعات مختلفة، كل دارس أو متلق ينطلق من مرجعية معينة أو من جهاز مفهومي معين ، تلك المـــنطلقات سماها الأساسية التمايز والاختلاف وغايتها الأخيرة تشريح النص بفك رموزه المتعددة، تسهيلا لتذوقه .

تسعى الدراسات النقدية الجديدة إلى صياغة نظرية في القراءة تكون أكثر فاعلـــية، وفي هـــذا السياق ظهرت العديد من المساهمات الجادة في بلورة هذه النظرية التي أعطت سلطة للقارئ منها الأفكار التي قدمتها مدرسة كونستانس [24] الألمانـــية (نظـــرية القـــراءة)، والتي سماها مؤسسها هانز روبير " جمالية التلقي".

"مدرســـة كونستانس" هي أولى المحاولات الكبرى لتحديد دراسة النص عـــلى ضوء القراءة، بينما كان اهتمام الدارس منصبا على ربط النص بكاتبه ، كان النهج الألماني يقترح أن يستقل التحليل إلى العلاقة بين النص وقارئه؛ ذلك لأن الـــنص لا يمكـــن كشف علاقاته وتوضيح بنيته العميقة دون تحليل العلاقة المتـــبادلة بـــين الطرفين (المبدع والمتلقي) . فهذه النصوصية حسب تعبـــير

ريفـــاتير[25] Rifaterre لا يتم ظهورها وتنفيذها إلا بقراءة المتلقي له .. كما تندرج في محاولة خوسيه ماريا بوثويلو إيفانوكس J.M. Pozuelo Yvanocs، الـــذي عـــالج في كتابه " نظرية اللغة الأدبية " في فصل شعرية التلقي في نفس الإطار .

إن جمالـــية التلقي (القراءة النقدية) تجعل القارئ يسهم بدور فعال في العملـــية الـــنقدية ، إذ يتخلى عن التصور الجامد للنص لصالح تصور حواري بنـــاء (العبور من السطح إلى العمق) عبر التفاعل بين النص والقارئ . وقد أصـــبح القـــارئ - كما يؤكد إيف شيفريل[26] - البطل الحقيـــقي للبحث الأدبي . كمـــا نجد دعوة بارت إلى موت المؤلف إعلانا عن ولادة عصر التلقي ذلك أن دلالة النص لا تنبع من منتجه، بل من علاقته بالقارئ .

وانطلاقا من الطروحات السابقة يمكننا الوقوف على الحقائق التالية :

1 - تـــأتي صـــعوبة القبض على النص وتحديد ماهيته وأبعـــاده لتعدد الـــرؤى، ولكونه فضاء لأبعاد متعددة متنازعة، إضافة إلى كونه شحنة انفعالية تحكمها قواعد لغوية ومعايير أخلاقية، وقيم حضارية وخصائص اجتماعية .

2 - لقد ظل النص بين جدلية المبدع والمتلقي، فللنص سلطته وللقارئ ســـلطته، البنـــيويون أفضوا على النص سلطة مطلقة، بحيث ينطلقون من بناه وأنســـاقه الداخلـــية دون غيرهـــا من السياقات الأخرى، بينما تنطلق المناهج الأخـــرى الـــتي جاءت بعد البنيوية (التفكيكية) من سلطة القارئ المطلقة في البحث عن القراءات المتعددة للنص .

ويـــبقى المهم هو السيطرة على النص واستثماره بفك إشاراته ورموزه المتعددة، وإبراز حقيقة العلاقة الجدلية بين منشئه (المبدع) ومتلقيه (القارئ) .

الإحـــالات والهوامـــش

[1]- جوليا كريستيفا ، علم النص ، ترجمة فريد الزاهي ، مراجعة عبد الجليل ناظم ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1991 ، ص 09 .

[2]- المحاضرات ، نشر النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، كتاب 67 ، المجلد 09، 1991 ، ص 70.

[3]- السيميائية والنص الأدبي ، أعمال ملتقى معهد اللغة والأدب العربي ، جامعة عنابة ، ماي 95 ، ص 67 .

[4]- المحاضرات ، المجلد 09 ، ص 70 .

[5]- شـفيق الـبقاعي ، مفهوم النص في اللسانيات الحديثة ، مجلة الفكر العربي ، مركز الإنماء العربي ، بيروت ، العددان (85 - 86) 1996 ، ص 154 وما بعدها .

[6]- المرجع نفسه ، ص 155 وما بعدها .

[7]- صـلاح فضـل ، بلاغـة الخطاب وعلم النص ، نشر مؤسسة مختار ، مدينة نصر القاهرة ، ط1 ، 1994 ، ص 247 .

[8]- سـعود محمـود عـبد الجابر ، النص الأدبي والمتلقي ، الفكر العربي ، عدد 89 ، 1997 ، ص 05 .

[9]- المرجع نفسه ، ص 06 .

[10]- المرجع نفسه ، ص . ن .

[11]- عبد الرحمن بن محمد القعود ، في الإبداع والتلقي (الشعر خاصة) ، عالم الفكر ، الكويت ، مجلد 25 ، عدد 4 ، أفريل - يونيو 1997 ، ص 174 .

[12]- المرجع نفسه ، ص . ن .

[13]- المرجع نفسه ، ص 178 .

[14]- Joseph Courtès , Analyse sémiotique du discours , ed Hachette supérieur , Paris p 48 - 49 , 1991

[15]-مجلـة فصول (الشعر العربي المعاصر، ج I) المجلـد 15 ، العـدد 2، 1996، ص 134

[16]- المرجع نفسه ، ص 136 .
[17]- السيمائية والنص الأدبي ، ص 47 (مرجع سابق) .
[18]- الفكر العربي ، مجلد 29 ، ص 10 (مرجع سابق) .
[19]- المرجع نفسه ، مجلد 25 ، ص 177 (مرجع سابق)
[20]- الفكر العربي ، عدد 89 ، ص 09 .
[21]- المرجع نفسه ، ص . ن .
[22]- المرجع نفسه ، ص 11 .
[23]- المرجع نفسه ، ص . ن .
[24]- المرجع نفسه ، ص 12 .
[25]- السيميائية والنص الأدبي ، ص 49
[26]- مجلة الآداب الأجنبية ، عدد 93 ، 1997 ، ص 25 .